غريغوريوس ابو الفرج المعروف بابن العبري

للاب لويس شيخو اليسوعي

(تابع لما سبق)

فلمَّا سمع اهل الزوراء بقدوم ابن العبري اعدُّوا لهُ ما يليق بشأنهِ من الحفاوة والاكرام. وكانت بغداد وقتئذٍ في قبضة المغول لم تَقُم بعدُ مما حلَّ بها من النكبات قبل ذلك العهد بخمس سنوات لمَّا استولى عليها هولاغو وخربها. وكان عليها عامل يقضي باسمهِ. امَّا النصارى فكانوا نالوا من الوُلاة عند المغول ما لم ينلهُ غيرهم لاسيَّما النساطرة لما كان لهم من التداخل مع قبائلهم الشتَّى وعلى يدهم كان تنتصر جمٌ غفير منهم. وكانت منذ ايَّام المنصور اضحت بغداد مقاماً لبطاركتهم وهم المعروفون بالجاثالقة لهم فيها عدَّة كنائس متسعة بديعة الاحكام

وكان للجاثليق الفسطوري لمَّا قدم ابن العبري بغداد مكيخا اسقف نصيبين سابقاً فارسل وفداً من قبلهِ للاقاة المفريان ورحَّب بهِ عند زيارتهِ لهُ في الدار الجاثليقيَّة. وكان وقتئذٍ زمن الفصح فتأهَّب النساطرة في كنيسة اليعاقبة ليحضروا الرُّتب والطقوس السريانية التي كان يترأسها المفريان

الَّا انَّ هذا الوِلاء بين بِحَتَّين طالما اشتهرتا بالنزاع والخصام لم يدم زمناً طويلاً. فانَّ اليعاقبة لمَّا رأوا ما جُبل عليهِ المفريان من الخصال الحميدة وانَّ منزلتهُ من العلم وغزارة المعارف اعلى من كلِّ معاصريهِ اخذوا يُطنبون في محامدهِ ويلقبونهُ باشرف الالقاب حتَّى خاف النساطرة ان يفقدوا ما كان لهم في بغداد من عزِّ المرتبة فاجتمعوا الى بطريركهم وسموا عندهُ بابن العبري ونسبوهُ الى الطمع برتبة الجاثليق التي خُصَّ بها النساطرة دون سواهم

فاحتدم مكيخا لهذا القول غضباً وفكَّر في مناقضة ابن العبري لولا انَّ الله كفَّ عنهُ شرَّهُ فقضى البطريرك نحبهُ بعد ايَّام قليلة في العشر الثاني من نيسان من السنة المذكورة. امَّا ابو الفرج فانهُ اقام في بغداد طول الصيف ووضع الايدي على عدَّة شمامسة ثمَّ اختار لبغداد اسقفاً من طائفتهِ سامهُ بيدهِ وقفل راجعاً الى الموصل في الخريف. فسكنها مدَّة ثم اقام بتكريت

٨

وكان من محلّ مركزه هذا يصرف نظره الى رعيته التعسة يكاد يلتهب غيرةً عليها واوّل ما وجّه اليه افكاره ان يرسل الى الكنائس أيمّةً فُضلاء ذوي علم ودين ليعيد الى امّته شأنها بين طوائف الشرق فلم يأخذهُ في ذلك لومة لائم ولم يفتر بما قدّمهُ اليه البعض من المال ليتولّوا امر الكنائس كما كانوا يفعلون مع اسلافهِ بل آثر من رآهم اهلًا لهذه المنزلة الرفيعة ولا يقلّ عددهم عن اثني عشر اسقفًا ساهم بيده لبلاد متباينة

ومن اعمالهِ المحمودة ما شيّدهُ او رمّمهُ من الكنائس لم نحصِ عمّا استدعى ذلك من النفقات الطائلة والمشاكل المُضلة. ومن جملة ما بناهُ كنيسة بغداد ساعدهُ على اتمام هذا المشروع احد ابناء ملّته ذو ثروة وعلم واسع اسمهُ صفيّ الدولة سليمان بن جمّال. وصرف عنايتهُ ايضًا الى تشييد بيعة واسعة في مدينة تبريز أحكم إتقانها وجهّزها بكل ما من شأنهِ ان يزيد الشعب اعتبارًا لبيت الله ومن يتولّى شؤونهم الروحية. وزاد على ذلك مأوًى للغرباء والزوّار كما فعل سابقًا في حلب

وكان ابن العبري كلفًا بزينة الكنائس وحسن هندستها. ولمّا رأى ان ملكة المغول مريم ابنة ميخائيل باليولوغ زوجة اباقا خان التاتار استقدمت من بلاط ابيها مصوّرين بارعين في فنهما لنقش كنيسة الروم في تبريز ارسل فطلب منها احدهما وعهد اليه زينة كنيسة دير جديد كان المغريان اتمّ عمارتهُ في مدينة بَرْتَل على اسم الشهيد يوحنّا بَرْنَجْرا. فلبّى المصوّر دعاءهُ وقام باعباء الامر احسن قيام. ولمّا انتهى من زينة البيعة نقل اليها باحتفال عظيم ذخائر الشهيد وكان قد اكتشفها ابن العبري. واخبر في كتاب التاريخ الكنسي انّ الامر أُوحي اليه بالحلم بعد ان استحرّ بالصلاة وعكف على الصوم والمبرّات ليرشدهُ الله الى الوقوف على مدفن الشهيد سابقًا

وكان ينبغي لإنجاز هذه الاعمال الشتّى ولتنفّذ شؤون الأمّة ان يتجشّم ابن العبري اسفارًا كثيرة ويطوف بلادًا نازحة فلم يثبطهُ عن ذلك خوفُ مشقّة ولا عناء

وكان اعيان العصر يطرقون مجلس ابن العبري كما انهُ كان يتردّد على السلاطين واصحاب الامر فيحظون شأنهُ ويحتفون بهِ. ومن ذلك دخولهُ على احمد بن هولاغو ملك المغول لمّا خلف اخاهُ اباقا سنة ١٢٨٢ م فرحّب بهِ كسلفيهِ ومنحهُ التاشير المبنية عن اعتبارهِ لهُ واقرارهِ بفضلهِ ورخّص لهُ ببناء الكنائس في العراقين. وكان هذا السلطان

قد اسلم منذ زمن قليل اما اخوهُ اياقا فكان نصرانيًا واخبر عنهُ صاحب الترجمة (تاريخ الدول ص ٥٠٥) في تاريخ سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) انهُ يوم عيد النصارى الكبير دخل الى البيعة في همذان وعيّد مع النصارى

وكان بطريرك النساطرة دنحا خلفَ مكيخا في سنة ١٢٧٧ يجلُّ ابن العبري ويراسلهُ في امور الدين والعلم. فلمَّا الجأتهُ بعض امور الملَّة ان يصعد الى بغداد استعملهُ بكل ما امكن من شارات العزّ والحفاوة وخطب امام الحضور مكرّرًا قول الحكيم: طوبى لشعب اصاب كمثل هذا. وقد بقي الى عهدنا شاهدٌ على ما دار بين المفريان والبطريرك من المباحثات. فانّنا لمّا كنّا في الموصل دلّنا حضرة الاب يوسف الكلداني وكيل المدرسة الاكليريكية على رسالة كتبها ابن العبري نظمًا الى دنحا يعرض لهُ بالبراهين العقلية والتقاليد الراهنة صحّة معتقد الكنيسة في اقنوم المسيح خلافًا لتعليم النساطرة. وهذه الرسالة لم توجد في ديوان ابي الفرج فارسلها الاب يوسف المذكور الى العلاَّمة الافرنسيّ الاب شابو فنشرها الشهرَ المتحرم من السنة الجارية في المجلَّة الاسيويَّة (١ وقد بلغتنا في الاسبوع الماضي

ومن تصفُّح ديوان ابن العبري وطالع كتب تواريخهِ ادرك ما كان لهُ من الهيبة في النفوس ومن نفوذ الكلمة عند الخواصّ وكان كثير من طلبة العلم يستجزلون فوائدهُ فيتألَّبون عليهِ من كلّ اوب. وقد ذكر من جملة تلامذته (٢ الطبيبين المشهورين ابا الخير التبريزيّ ويوحنَّا المراغيّ وكان مع ذلك لا يضنُّ بعلمهِ فيحلُّ شكوك من اتاهُ بتزاهة وكرم. وقد أخذ في تاريخ الدول (ص ٤٨١) على احد معاصريهِ المدعو يعقوب الدمشقيّ السامريّ لشارطتهِ من يقصدهُ من الطلاَّب للاستفادة دراهمَ معلومة. فقال عنهُ «انَّ هذه خساسة مباينة للانفس الفاضلة»

وكان كلّهُ بصحبة الحكماء والفلكيين والاطبَّاء. انظم منهُ بغيرهم لما كان لهُ في فنون الفلسفة والهيئة والطبّ من البراعة والشهرة. وقد عدَّد في تاريخ الدول والتاريخ الكنسيّ جملة رجال من المشاهير الذين برزوا في زمانهِ بهذه الصنائع وقد اجتمع ببعضهم على اختلاف اديانهم كنصير الدين الطوسي وجمال الدين بن الوجيّ الدمشقيّ. وقد قال عن هذا في تاريخ الدول (ص ٤٨٠) ما نصُّهُ: «وقد صحبتُهُ أباشر معهُ المرضى بالبيمارستان النوريّ

---

١) Journal Asiat., 9e Série, XI, p. 75

٢) التاريخ الكنسيّ الجزء الثاني (ص ٤٦٠ – ٤٦٢)

بدمشق وكان حسن الاخلاق لم ار في الجماعات احسن منهُ زيًا وصمتًا ونطقًا ومبسمًا

٩

وما من شأنهِ ان يذهل العقول انَّ ابن العبري رغمًا عمَّا احدق بهِ من الشواغل العديدة وما باشرهُ من الاسفار الطويلة لم يزل واقفًا عمرهُ على التصنيف والتأليف . فكان اذا ما دخل مدينةً اسرع الى قضاء امور طائفتهِ الروحيَّة ثم يتفرَّغ الى الكتابة ينشطهُ على ذلك ما يجدهُ في كلّ مدينة من خزائن الكتب الخطيَّة العزيزة الوجود فضلًا عمَّا آتاهُ الله من قوَّة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة . وكان يؤثر مدينة مراغة من اعمال آذربيجان لتصنيف كتبهِ

ومما صنَّفهُ هكذا في غضون تنقُّلهِ في البلاد شرحُ كتاب المساحة لاوقليدس وضعهُ نحو سنة ١٢٧٠ وحاشيةُ كتاب المجسطي في الهيئة لبطلميوس الشهير كتبهُ سنة ١٢٧٣

ولم يثنهِ انحطاط قواهُ عن الكتابة حتَّى عند اقتراب المئون . وقد اخبر عنهُ اخوهُ برصوما الراهب انَّهُ لمَّا انتهى الى مراغة قبل وفاتهِ باشهر وهو في انتظار وردد المنيَّة اتاهُ بعض وجوه البلدة من العرب فطلبوا اليهِ ان يعرِّب لهم تاريخهُ في الدول المكتوب في السريانيَّة فاجاب الى سؤلهم واخذ ينقل الكتاب الى العربيَّة وانجزهُ بنحو شهر فقط . وهو التأريخ الذي نُشِر بالطبع في مطبعتنا . ومن يقرأ هذا الكتاب يتعجَّب من حسن سبكهِ وفصاحة الفاظهِ وطلاوة كلامهِ . وقد تصرَّف في هذا التعريب بعض التصرُّف لأنَّهُ زاد على الاصل السرياني عدَّة تفاصيل وضرب صفحًا عن غيرها كما رآهُ انسب لغرضهِ . وكلا التاريخين من التآليف العميمة الفوائد الجديرة بالثناء

وكان ابن العبري قويَّ البنية مجدول الخلق لا يشكُّ من يراهُ انهُ سيُعمَّر طويلًا الَّا انَّ ما نهض بهِ من المشروعات الجليلة وتحمُّلهُ في مدَّة عمرهِ من المشقَّات كان قد انهك قواهُ ودكَّ صريح بنيتهِ . وكان في سنة ١٢٦٨ اصابهُ داء عُضال كاد يذيقهُ كأس المنيَّة وذلك في ابَّان سفرٍ كان باشرهُ الى نواحي الارمن فبقي طريح الفراش مدَّةً وهو على رمَق بين حيّ وميت ثم عافاهُ الله ومدَّ في اجلهِ

وما زاد على اوجاع المفريان واتعابهِ ما قاساهُ من ذوي ملَّتهِ . وقد بسط في تاريخهِ ما جرى بينهُ وبين البطريرك اغناطيوس خلَف ابن المعدنيّ من الوحشة لانَّ البطريرك لم يرضَ

بمشورته في امور كانت تمسّ صالح الطائفة . ثمّ ترضاهُ البطريرك وارسل اليهِ ثلاثة من الاساقفة يطيّبون خاطرهُ . فتراضيا

وتوفي البطريرك المذكور في اواخر سنة ١٢٨٢ في دير قُشيّاط من اعمال قيليقية وكان قبل وفاتهِ اصابهُ داء الاستسقاء . فلمّا احسّ بوشك قضاء نحبهِ ارسل الى المفريان يستدعيهِ ليسلم اليهِ تدبير الكرسيّ البطريركيّ . فلم يتمكّن المفريان من السَّفر لانّ الحروب في تلك السنة كانت قائمة على ساقٍ والطرق ليست بمأمونة . وفي تلك الاثناء مات البطريرك فاسرع بعض كهنة قلعة الروم اسمهُ يعقوب وجمع ثلاثة اساقفة في دير برصوما وعرض عليهم ان يختاروا لهم بطريركًا ابن اخيهِ غرود ففعلوا في اوائل سنة ١٢٨٣ واجلسوهُ على الكرسيّ البطريركي وتسمّى يشوعياب ونال لهُ عمهُ منشورًا من ملك المغول . فكان هذا الانتخاب مخالفًا لكل سُنّن البيعة لاسيّما انّ مجمع الاساقفة عُقد بمعزل عن المفريان . فما بلغ هذا الخبر ابنَ العبريّ حتّى ناصب البطريرك الجديد بكلّ ما تأتّى لهُ من الوسائل الّا انّ مساعيهُ ذهبت ادراج الرياح . والحقّ يقال ان هذه المنازعات كثيرًا ما انتشرت في هذه الطوائف المنفصلة عن كرسيّ هامة الرُّسل فبلبلت نظامها وقوّضت دعائم قوّتها . وحسبنا على ذلك دلائل لا تُنكر ما دوّنهُ ابن العبريّ في تاريخهِ الكنسيّ وهو مشحون بذكر هذه الخصامات والمشاجرات . صان الله كنيستهُ من شرّها

١٠

فكان ما وجدهُ ابن العبريّ من الشجب والاعنات في هذه الظروف مؤثّرًا في مزاجهِ ايّ تأثير . فاعتزل الامور وتخلّى للدرس الى سنة وفاتهِ . ولمّا حدث في تلك السنين زلازل كثيرة كادت تخرّب مدينة ماطية وتفسد دير برصوما برُمّتهِ عزا المفريان ذلك الى عتاب الله وغضبهِ تعالى على اهل ملّتهِ

واخبر اخوهُ برصوما صافي الراهب انّ شقيقهُ كان يتوقّع حلول منيّتهِ في سنة ١٢٨٦ مستندًا في ذلك الى مراقبة النجوم . وفي ديوانهِ قصيدة تُشعر بهذا الاعتقاد الباطل الذي كان كثيرٌ من مُعاصريهِ يُفتون بصحّتهِ

ولمّا تكرّرت في هذه السنة غزوات اهل الشام بجهات الموصل حتّى خاف الاهلون على ارواحهم انتقل ابن العبريّ من الموصل الى مراغة في آذربيجان . فكان هذا السفر منشطًا لقواهُ وبقي مدةً مشمولًا بحسن العافية مكرّمًا من اهل المدينة على اختلاف

مذاهبهم الى العشر الاخير من شهر تموز فابتلاهُ الله بحمّى شديدة في ٢٨ منهُ. فتواردت اليه اطباء البلدة واشاروا عليه بشرب الدواء. فلم يرضَ زاعماً انَّ ساعة وفاته قد دنت واخذ يفكر في امور رعيته ويوصي اخاهُ بنيّاته الاخيرة ويعزي الحاضرين المكتئبين لدنوّ أجله

ولمَّا كان اليوم الثالث من مرضه استدعى كاتب اسراره فاملى عليه قول الكتاب (اشعيا ٤٠: ٦): كلُّ بشرٍ عُشبٌ وكلُّ مجدهِ كزهر الصحراء. ثم حرَّض تلامذتهُ على التحابّ والألفة مكرِّرًا لهم قول الربّ في الانجيل يوحنَّا: «بهذا اوصيكم ان تُحبّ بعضكم بعضاً». فاخذ الحضور يذرفون الدموع السخينة على سيّدهم وكان منهم من يمزّق ثيابهُ وغيرهم يذرُّون التراب على هامتهم بينما كان هو يتلقَّى الموت بوجهٍ بشوش. قال اخوهُ «وبقيتُ على هذه الحالة بضعة ساعات حتى انطفأ هذا السراج المضيء. اربالحريّ هذا النور الساطع وسقط هذا العَمَد الوطيد للملّة اليعاقبة الصغيرة والضعيفة فانتقل الى رحمة ربّه» في ليلة الثلاثاء الواقعة في ٣٠ تموز من السنة ١٢٨٦

فكان لنعاهُ وقعٌ عظيم كأنَّ المدينة اُصيبت بخطب جَلَل فاجتمع اليعاقبة والنساطرة والروم والارمن عند جثَّته وقضوا نهارهم في الصلاة عليه. وكان وقتئذٍ بطرك النساطرة يَهبالاها خلفُ دِنْحا منذ سنة ١٢٨١ موجودًا في براغة فامر كلَّ نصارى ملَّته بان يمتنعوا عن الشغل ويلبسوا الحداد ايذانًا بما طرأ على النصرانيَّة من الرزيَّة العظمى بوفاة هذا العلاَّمة الجليل. وبعد ذلك بمدَّة نُقلت جثَّتهُ الى الموصل فدُفنت باحتفال في دير مار متَّى حيث لا يزال قبرهُ مكرَّمًا كما سبق (ستأتي البقية)

كتاب
تاريخ بيروت

لمحمد بن صالح (تابع لما سبق)

ولم اقف الَّا على القليل من اخبار بحتر (١. واماَّ اخبار من قبلهُ فجدُّهُ والد بحتر وهو

١) وقد جاء في كتاب اخبار الاعيان في جبل لبنان (ص ٦٦٥ — ٦٦٧) تفاصيل اخر عن ترجمة الامير بحتر لا نعلم من اين اخذها الكاتب. واغا نتعجَّب كيف جهلها المؤلف مع تنقيبه عن اخبار اجداده. وهاك ملخَّص ما ورد في الكتاب المذكور قال: انَّ الفرنج في سنة ١١١٠ م